الاسكندر ذو القرنين

غزوة الهند

تركنا الاسكندر وقد دوّخ بلاد الفرس ولم يبقَ عليهِ من البلدان التي كانت تحمل اليهم الجزية الاَّ الهند فقام في فصل الربيع من سنة ٣٢٧ ق . م بجحفل مئة وعشرين الف مقاتل لان فوزهُ المتواصل في بلاد الفرس حمل كثيرين من اليونانيين والمكدونيين والسوريين على الانضواء اليهِ فزاد بهم جيشهُ رويدًا رويدًا خلا من انضمَّ اليهِ من امم المشرق وبقيت النجدات ترد اليهِ حتى بعد ابتعادهِ في بلاد الهند . وبلغ وادي كابول حيث كان منذ سنتين وحصَّن المدينة التي انشأها وسماها باسمهِ وليث هناك فصل الصيف الى ان تمَّ استعدادهُ للحملة على بلاد الهند. ثم قام في الخريف والجحفل في وادي كابول وبعث امامهُ بالوفود يدعون ملوك الهند الى الطاعة وكانت شهرتهُ قد طبَّقت الآفاق فوفد اليهِ كثيرون منهم يحملون الهدايا الفاخرة فأمَّنهم واقرَّهم في ممالكهم حتى اذا صار على مئة ميل من كابول شرقًا قسم جيشهُ قسمين سيَّر قسمًا منهما جنوبًا ليستولي على مضيق خيبر وسار هو بالقسم الثاني شمالاً ليستولي على بلاد بامير ومضايق شترال. وخيبر وشترال الطريقان الى بلاد الهند اللذان يطمع الروس بامتلاكهما يومًا ما ويرى الانكليز ان لا بد من صدهم عنهما . ففعل الاسكندر في سنة واحدة ما لم يستطعهُ الروس حتى الآن ولا استطاعهُ الانكليز الاَّ بعد اعوام كثيرة واراقة انهار الدماء

ولقي من سكان الجبال الامرَّين لشدَّة بأسهم ووعورة مسالكهم وما زال يفتح مدينة بعد مدينة ومعقلاً بعد معقل الى ان بلغ وادي السند . ومن المعاقل التي فتحها معقل شاهق اسمهُ اقارنا اي الجبل . ويقال انهُ جبل كثير الحراج ارتفاعهُ ستة آلاف قدم ومحيطهُ اثنان وعشرون ميلاً وفي اعلاهُ حصن منيع فيهِ نبع ماء وقد عجز عنهُ كلُّ من قصدهُ بسوء فاختار الاسكندر شرذمةً من نخبة رجالهِ الذين يعتمد عليهم في الشدة وارسلهم مع القائد بطليموس بن لاغوس وهو الذي خلفهُ على مصر وانشأ دولة البطالسة كما سيجيء . واسترشد بعض السكان فارشدوهُ الى اكمة بجانب الحصن يستطيع القيام فيها الى ان يتهيأ لهُ الهجوم عليهِ فامر بطليموس ان يصعد اليها ليلاً فصعد وعند الفجر رأتهُ حامية الحصن فنشب القتال بينهُ وبينها ودام النهار كلهُ ولم يستطع الاسكندر ان يمدهُ بالرجال ذلك اليوم لكنهُ استطاع ذلك في اليوم التالي وصعد برجالهِ وقابل الحامية من جهة اخرى فصارت بينهُ وبين بطليموس واحتدمت نار القتال النهار كلهُ وجنود الاسكندر تتقدَّم رويدًا رويدًا وهي تتسلق الصخور والشواهق والحامية

تمتنك بها فتكلا ذريعاً وكانت الاكمة التي عليها الحصن ارفع كثيراً من الاكمة التي عليها بطليموس وبينهما وادٍ عميق واسع فيتعذر الوصول الى الحصن منها بل يتعذر الوصول اليهِ من كل جهة لان الوادي يحيط بهِ من الجهات الاربع لكنَّ من فتح صور وغزَّة واسوارها تناطح السحاب لا يتعذر عليهِ عبور وادٍ مهما كان عميقاً فامر رجالهُ ان يقطعوا اشجار الحراج ويلقوها فيهِ وللعمال تحوَّلت السيوف فؤوساً وجعل الجنود يقطعون الاشجار ويلقونها في الوادي ليكون منها جسر يعبرون عليهِ والاسكندر واقف بينهم يشجعهم ويهيب نفوسهم وكان معهُ آلات كثيرة لرشق الحجارة والسهام كان ينصبها على هذا الجسر ويذود بها عن الجنود وهم يقطعون الاشجار ويضيفونها اليهِ الى ان تمَّ انشاؤهُ في اربعة ايام. ورأت الحامية ان لا قبل لها بالاسكندر بعد ان بلغ الحصن فذاكرتهُ في امر الصلح واكثرت من الاخذ والعطاء وفي نيتها ان يمضي النهار كلهُ ويأتي الليل وهو مطمئنٌّ بانها استأمنت اليهِ فتخرج من الحصن ليلاً وتلجأ الى الفرار . ولم يخفَ عليهِ ذلك فابعد عن الحصن قليلاً وتغافل عنهُ قصداً الى ان خرجت الحامية منهُ فاجأها واوقع بها حتى كاد يفنيها فوقعت هيبتهُ في النفوس لاسيما وان ذلك الحصن كان مشهوراً في تلك الاقاليم بانهُ امنع من عقاب الجو

والجنود التي سارت جنوباً لم تجد من المقاومة ما وجدتهُ الجنود التي سارت شمالاً فارتفع علَم الاسكندر على كل البلاد غربي نهر السند وترك الحامية في كل المعاقل والحصون التي مرَّ بها ونظَّم حكومة البلاد كأنها ايالة من ايالاتهِ

ويضيق نهر السند بقرب اتوك لمروره في وادٍ صخري ضيق فيبلغ عمقهُ نحو مئتي قدم وعرضهُ نحو مئتين وخمسين قدماً لا غير فنصب جسراً من القوارب عبرهُ بهِ وكان ذلك في اوائل الربيع من سنة ٣٢٦ ولقي هناك ملكاً من ملوك الهند كان قد بعث اليهِ بالهدايا وهي ثلاثة آلاف من الماشية وعشرة آلاف من الغنم وثلاثون فيلاً ومئتا وزنة من الفضة وسبع مئة فارس من فرسان الهند واسم عاصمة هذا الملك تكشايلا فاختصرهُ اليونان وسموها تكسيلا وسموا ملكها تكسيلس وكأنهُ استأمن للاسكندر مخافة من جارهِ ملك فوراقا الذي يسميهِ اليونان فورس ويسمَّى في كتب العرب فور . وكان هذا الملك جباراً عظيم السطوة بادي المهابة فلم يخشَ بأس الاسكندر بل وطن النفس على منازلتهِ وصدهِ عن بلادهِ وجمع جيوشهُ ونزل بها على نهر هداسبس الذي يفصل بلادهُ عن البلاد التي وصل اليها الاسكندر وكانت ثلوج الجبال قد ذابت ومدَّت هذا النهر فطغى حتى بلغ عرضهُ ميلاً وكان مع فور خمسة وثلاثون الف مقاتل وثلثمئة فيل ورأى فرسان الاسكندر الافيال فراعهم امرها لان خيلهم تنفر من

رائحتها وصوتها والفرسان معتمد الاسكندر في هجماته فاخذ يدبّر الحيل ويترصّد الفرص وهو يتظاهر بالصوم يوماً بعد يوم على عبور النهر فينزل فيه القوارب وتتهيأ الفرسان للعبور ثم تعدل عنهُ وكانت تمضي في منتصف الليل وتبوّق فصد الهجوم ازعاجاً للهنود حتى لا تغمض جفونهم الى ان الفوا هذه الحالة ولم يعودوا يعبأون بما تفعلهُ جنود الاسكندر . ثم ان الاسكندر اشاع انهُ رأى النهر لا يُعبَر فعزم ان ينتظر الى ان ينخفض ماؤهُ في الخريف المقبل وجعل يجوب البلاد التي حولهُ ويدوّخها ويجمع المؤن ويقيمها اكداساً اقناعاً الغور ورجالهِ بانهُ غير عازم على العبور اليهم قبل فصل الخريف

وكان على عشرة اميال من معسكر الاسكندر منعطف في النهر بينهُ وبين المعسكر آكام متواصلة وحراج غياض وفي هذا المنعطف جزيرة شجراء فعزم على ان يعبر النهر من هناك وقام بنحو ثلاثين الفاً من نخبة جنودهِ ودار حول التلال حتى بلغ المنعطف وابقى بقية الجيش في المعسكر بقيادة كراتروس وامرهُ ان يحاول عبور النهر والهجوم على العدو حينما يعبرهُ هو من عند المنعطف حتى يشغلهُ من امامهِ ومن ورائهِ في وقت واحد

وسار الى المنعطف في ليلة ليلاء كثيرة الزوابع والامطار وقسم رجالهُ فسمين ترك قسماً منهم وهم نحو سبعة عشر الفاً من المشاة على الضفة الشمالية لكي يصدوا الملك ايسارس الذي كان نازلاً من بلاد كشمير لنجدة الملك فور وعزم ان يهاجم فوراً بثلاثة عشر الفاً من الفرسان والرماة . وكان رجالهُ قد حملوا بعض القوارب والزقاق والاطواف فاستعانوا بها على قطع النهر وكانت الامطار قد مدّت ماءهُ حتى طغى على ضفتيهِ. ولما اجتاز الجزيرة درى به رقباء الهنود وعدوا الى المعسكر واخبروا بما رأوا وعبر رجال الاسكندر من الجزيرة الى الضفة المقابلة فوجدوها جزيرة اخرى يفصلها الماء من البر ولم يكن ذلك ظاهراً لهم وهم على الضفة الاخرى فاسرعوا الى خوض الماء قبلما يقابلهم العدو والماء الى الاكتاف والارض طفالية كثيرة الزلق ولما رأى الاسكندر ما حاق بهِ من الشدّة حينئذٍ قال " ما اشد المخاطر التي تجشمتها لكي تجودوا عليّ بالمدح ايها الاثينيون " . ذكر ذلك فلوطرخس

ولما بزغ الفجر كان الاسكندر ورجالهُ قد بلغوا الضفة الاخرى واصطفوا فيها وتأهبوا للهجوم وكان فور ورجالهُ واقفين امام النهر تتجه صفوفهم الى الشمال الغربي فاتاهم الاسكندر من الشمال الشرقي بعد ان عبر النهر ولذلك اضطر فور ان يدور بجنودهِ ويقابلهُ . وكان الرقباء قد وصلوا الى المعسكر واخبروا ان جنوداً عبرت النهر من عند المنعطف ولكنهم لم يتبينوها من شدّة الظلام وكان فور ينتظر النجدة من ايسارس ملك كشمير كما تقدّم فظنها النجدة المنتظرة

لان خيام الاسكندر وجنوده لم تزل على الضفة المقابلة ولم يظهر انهُ غاب منها احد فارسل الفين من فرسانهِ ومشى مركبة مع ابنهِ حتى اذا كانت الجنود من جنود ايسارس قابلها بالترحاب واذا كانت من جنود الاسكندر وقف في وجهها الى ان تأتيهُ النجدات

والاسكندر على ما رأيت يأبى ان يفرض لهُ احد الخطة التي يسير فيها فيخط الخطط الحربية لنفسهِ ويفرضها على غيرهِ . واي خطة ابدع من الخطة التي سار فيها حينئذٍ فان فور اقام بجنودهِ على النهر حتى اذا عبرت اليهِ جنود الاسكندر من الضفة الاخرى اصطادها صيدًا كلما عبرت فرقة منها اوقع بها فيكون النهر اكبر عون لهُ عليها . فانكر الاسكندر عليهِ ذلك وعبر النهر خلسة من مكان آخر كما تقدم وجاءهُ من السهل عن يمينهِ فاضطرَّ ان يترك اعتمادهُ على النهر ويقابلهُ مواجهة اي ان يقبل بالخطة التي خطها لهُ رغمًا عنهُ

وبعد قليل عادت الفرسان التي أُرسلت للاستطلاع بعد ان اوقعت بها جنود الاسكندر ومزَّقت شملها وقتلت منها اربع مئة فارس فلم تبقَ شبهة في ان الجنود المقبلة هي جنود الاسكندر ولو كان معسكرهُ لا يزال على الضفة الاخرى من النهر . ولو قابلهُ فور حينئذٍ وهجم عليهِ لكان الفوز لهُ لان ثلاثة عشر ألفًا لا تستطيع الثبات في وجه ثلاثين ألفًا من الجنود المدربة على القتال لاسيما وخيول اليونان تنفر من رائحة الافيال وصوتها لكنهُ لم يفعل ذلك بل ادار جنودهُ حتى قابلت جنود الاسكندر فامتدت صفوفها اربعة اميال والافيال في قلبها كالابراج وجعل الفرسان والمركبات على الجناحين وابقى جانبًا كبيرًا من جنودهِ على ضفة النهر مخافة ان تعبر اليهِ جنود الاسكندر من الضفة الاخرى وتوقع بساقتهِ واقام كذلك منتظرًا قدوم الاسكندر . واقبل الاسكندر وجنودهُ منضمة ملتحمة لا يبلغ عرضها سوى ربع ميل فسهل عليهِ الهجوم على الجانب الذي يريدهُ فهجم على الجناح الايسر المحاذي للنهر لكي لا تحيط بهِ جنود فور من كل ناحية وامر مشاتهُ ان ينتظروا الى ان يقع الاضطراب في ميسرة الهنود فيهجموا عليها وبعث فريقًا آخر من الفرسان سار بجانب النهر حتى اذا دارت الميسرة لتقابلهُ وقع هذا الفريق على ساقتها فاطبقت فرسانهُ عليها من الامام ومن الوراء فتم لهُ ما قدَّرهُ ودارت الدائرة على ميسرة فور وتمزَّق شملها . وهجمت جنود الاسكندر حينئذٍ على قلب الهنود من الجهة اليسرى فاختلَّ نظامهُ لما دار لكي يقابلها لكن فرسان الميسرة عادت فلمَّت شعثها وبادرت لمساعدة الجانب الذي هجم عليهِ الاسكندر وكانت الافيال هناك فهربت منها خيول فرسانهِ اما المشاة فوقفوا امامها وجعلوا يطعنونها وراكبيها بحرابهم حتى ارتدَّت على اعقابها وردَّت مشاة الهنود معها وحينئذٍ عادت فرسان الاسكندر ودفعت فرسان الهنود فاصطدمت بالافيال واجتمعت فيالق

المشاة وضمت اتراسها بعضها الى بعض حتى صارت كالبناء المرصوص وهجمت هي والفرسان على الافيال من جهتين من الامام ومن اليسار فاضطرت الافيال ان ترتد على اعقابها وتزحم المشاة الذين وراءها فعصرتهم عصراً وداستهم باقدامها واشتبكت فرسان الهنود ومشاتهم وافيالهم في ورطة واحدة كل ذلك والملك فور يحث جنوده على الثبات ويدير صفوفهم من جهة الى اخرى ويمنعهم من الفرار الى ان ضاقت به الحيل وجرح جرحاً بالغاً ورأى ان الدائرة دارت عليه فلوى عنان فيله وارتكن الى الفرار . ورأى الاسكندر ما ابداه هذا الملك من البسالة والمهارة فاعجب به ورام ان لا ينالهُ مكروهٌ فامر الملك تكسيلس ان يتبعهُ ويؤمّنهُ فلما رآهُ فور استلّ خنجرهُ وهمَّ بضربه لانهُ عدو الد لهُ فعاد واخبر الاسكندر فبعث وراءهُ رجلاً هندياً من احد قائد امرهُ ميرو فلطف لهُ المقال الى ان اذعن للتسليم وعاد الى الاسكندر . فلما رآهُ مقبلاً سار للقائه وكان فور جباراً طويل القامة مهيب الطلعة فنظر اليه الاسكندر معجباً ببسالته وقال لهُ ماذا تريد ان افعل لك فقال ان تعاملني كما يليق بالملوك ان يعاملوا غيرهم فسُرَّ بهذا الجواب وقال اما من جهتي فكما يليق بالملوك اعاملك واما من جهتك فما هي طلبتك فتقضي فقال فور هذا حسبي

وهذه الواقعة اشهر وقائع الاسكندر من حيث ما ابدى فيها من المهارة الحربية . وقد روى ديودورس انهُ قُتل من جيش فور اثنا عشر الفاً وقال اريانوس بل قتل منهُ ثلاثة وعشرون الفاً واخذ الاسكندر ثمانين من الافيال وحُطّمت المركبات كلها وكان بين القتلى اثنان من ابناء فور

وانشأ الاسكندر مدينة في مكان الواقعة سماها نيقية (اي المنصورة) ومدينة اخرى على الضفة المقابلة حيث كان معسكرهُ سماها بوسيفلوس تذكاراً لجواده المشهور لانهُ مات هناك بعد ان رافقهُ ثماني عشرة سنة ولم يمتطِ صهوتهُ احد غيرهُ . ولم تزل هذه المدينة الى الآن واسمها جلال فور

هذا وقد ذكر عبد الله بن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة الملك فوراً نقلاً عن بهتود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي في المقدمة التي قدمها لذلك الكتاب وقال فيها

"ان الاسكندر ذا القرنين الرُّومي لما فرغ من امر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب سارَ يريدُ ملوكَ المشرق من الفرس وغيرهم . فلم يزل يحارب من نازعهُ ويواقع من واقعهُ . ويسالمُ من وادعهُ من ملوك الفرس وهم الطبقة الاولى حتى ظهر عليهم وقهر من ناواهُ وتغلب على من حاربهُ فتفرّقوا طرائق . وتمزقوا حزائق . فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين فبدأ في

طريقه بملك الهند ليدعوه الى طاعته والدخول في ملته وولايته . وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس . يقال له فور فلما بلغه اقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته . واستعدّ لمجاذبته وضمّ اليه اطرافه وجد في التأليب عليه وجمع له العدة في اسرع مدة . من الفيلة المعدة للحروب . والسباع المضرّاة بالوثوب . مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع والحراب اللوامع

فلما قرب ذو القرنين من فور الهندي وبلّغه ما قد اعدّ له من الخيل . التي كأنها قطع الليل . مما لم يلقه بمثله احد من الملوك الذين كانوا في الاقاليم . تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به ان عجل المبارزة . وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة فرأى اعمال الحيلة والتمهل واحتفر خندقاً على عسكره واقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لامره وكيف ينبغي له ان يقدم على الايقاع به . فاستدعى بالمنجمين وامرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه فاشتغلوا بذلك . وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة الاّ اخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف . فنجمت له همته ودلته فطنته ان يتقدم الى الصناع الذين معه ان يصنعوا خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري اذا دفعت مرت سراعاً . واسر اذا فرغوا منها ان تحشى اجوافها بالنفط والكبريت وتليس وتقدم امام الصف في القلب . ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران فان الفيلة اذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولت هاربة . واوعز الى الصناع بالتشمير والانكماش والفراغ منها . فجدوا في ذلك وعجلوا وقرب ايضاً وقت اختيار المنجمين فأعاد ذو القرنين رسله الى فور بما يدعوه اليه من طاعته والاذعان لدولته . فاجاب جواب مصرّ على مخالفته مقيم على محاربته

فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار اليه بأهبته وقدّم فور الفيلة امامه ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان فأقبلت الفيلة نحوها ولفت خراطيمها عليها . فلما احست بالحرارة القت من كان عليها وداستهم تحت ارجلها ومضت مهزومة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمرّ باحد الاّ وطئته وتقطع فور وجمعه وتبعهم أصحاب الاسكندر واثخنوا فيهم الجراح . وصاح الاسكندر يا ملك الهند ابرز الينا وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم الى الفناء . فانه ليس من المروءة ان يرمي الملك بعدّته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه . فابرز اليّ ودع الجند فأيّنا قهر صاحبه فهو الاسعد فلما سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه الى ملاقاته طمعاً فيه وظن ذلك فرصة . فبرز اليه الاسكندر فتجاولا على ظهري

فرسيهما ساعاتٍ من النهار ليس يلقى احدهما من صاحبهِ فرصةً ولم يزالا يتعاركان . فلما اعيا الاسكندر امرهُ ولم يجد فرصةً ولا حيلةً أوقع ذو القرنين في عسكرهِ صيحةً عظيمةً ارتجت لها الارض والعساكر . فالتفت فور عند ما سمع الزعقة وظنها مكيدةً في عسكرهِ . فعاجلهُ ذو القرنين بضربةٍ اماتتهُ عن سرجهِ اتبعها باخرى فوقع الى الارض . فلما رأت الهنود ما نزل بهم وما صار اليهِ ملكهم حملوا على الاسكندر فقاتلوهُ قتالاً أحبوا معهُ الموت . فوعدهم من نفسهِ الاحسان ومنحهُ الله اكتافهم فاستولى على بلادهم وملَّك عليهم رجلاً من ثقاتهِ . واقام بالهند حتى استوسق لهُ ما اراد من امرهم واتفاق كلمتهم . ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجهاً نحو ما قصد لهُ "

واشار ابن خلدون الى ذلك فقال " ولما استولى الاسكندر على بلاد فارس تخطاها الى بلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الاسكندرية ثم زحف الى بلاد الهند فغلب على اكثرها وحاربهُ فور ملك الهند فانهزم واخذهُ الاسكندر اسيراً بعد حروب طويلة" . واشار المسعودي الى ذلك اشارةً والظاهر انهُ هو وابن الاثير نقلاً عن ابن المقفع

هذا ولنعُد الى ما اثبتهُ الاستاذ هوبكر نقلاً عن الثقات من المؤرخين قال ان الاسكندر اقام شهراً من الزمان في بلاد الملك فور واصلح بينهُ وبين تكسيلس واقرَّ كلاً منهما على مملكتهِ شأنهُ في ابقاء الاكفاء من الملوك والولاة الذين انتصر عليهم في ممالكهم وايالاتهم واتخاذهم حلفاء لهُ لا عبيداً . ثم ترك كراترس ليهتم ببناء نيقية وبوسيفالا وسار شرقاً ليتم تدويخ بلاد البنجاب المعروفة ببلاد الانهر الخمسة فاطاعهُ ملك كشمير لما رأى ان لا قبل لهُ بمناوأتهِ وبعث اليهِ هدية اربعين فيلاً ومقداراً وافراً من الذهب . وقاومهُ سكان المدن التي عبر نهر رافي ومنها مدينة سنغالا وهي كبيرة حصينة فنقبها عنوةً وقتل من اهلها سبعة عشر الفاً واسر سبعين الفاً . ومن ثمَّ اطاعتهُ بقية المدن المجاورة وصارت البلاد كلها طوع أمرهِ والظاهر انهُ لم يكن يعلم ان وراء نهر السند نهراً آخر اكبر منهُ وهو نهر الكنك وبلاداً من اوسع بلدان المسكونة واعمرها لان اليونان كانوا يجهلون ذلك حينئذٍ فحسب انهُ بلغ نهاية ما وصل اليهِ ملك الفرس وعزم ان ينزل في نهر السند الى مصبهِ ويدور في الاوقيانوس الهندي حتى يصل الى خليج فارس فامر ببناء السفن اللازمة لذلك عند نيقية ثم بلغهُ انهُ لا يزال شرقي الانهر الاربعة الصائبة في نهر السند بلاد عامرة واقوام لهم شرائع غريبة خاصة بهم وهم اهل زراعة وصناعة عامتهم خاضعة لخاصتهم وكلهم طوال القامة اشداء البأس فعزم ان يمضي اليهم ولو من قبيل الاكتشاف والاستطلاع لكن رجالهُ ابوا عليهِ ذلك وهذه اول مرة جاهروا بمخالفتهِ

فان كثيرين منهم كانوا جرحى او مرضى وهطلت الامطار حينئذٍ سبعين يوماً متوالياً فضعفت نفوسهم وتضعضعت عزائمهم وقالوا ان نحن جاريناهُ هذه المرة واصل السير بنا الى ما شاء الله . فجمع رؤساءهم وحثهم على الذهاب معهُ فابوا كلهم وقالوا انهم قد اجمعوا على العودة فاغتاظ منهم ودخل خيمتهُ وبقي يومين لا يكلم احداً فساءهم ذلك لكنهم بقوا مصرّين على عزمهم . ولما رأى منهم هذا الاصرار امر ان تقرّب الذبائح للآلهة ليرى ما تدلُّ عليهِ وقت ذبحها فقال الكهان انها تدل على الرجوع فهتف الجنود فرحاً ولما رأى ان قوّات الارض والسماء قد اتفقت على ارجاعهِ عن عزمهِ جمع خواصهُ حولهُ وقال لهم انهُ عزم على الرجوع فسرّوا بذلك حتى بكى بعضهم فرحاً

وبنى هناك اثني عشر مذبحاً كالابراج الكبيرة قرّب عليها ذبائح الشكر وعاد الى نيقية بعد ان قهر سبعة شعوب وفتح اثني مدينة وثبّت السفن حالاً وهي الفا سفينة ثمانون منها كبيرة في كل واحدة ثلاثون مجذافاً وامّر عليها نيارخس الكريتي وجعل اونسيكريتوس ربّاناً في السفينة الخاصة بهِ وقد كتب هذان الرجلان قصة سفرها نخلدا بذلك ذكرها . وتخرت هذه السفن في النهر في شهر اكتوبر سنة ٣٢٦ قبل المسيح ووقف الاسكندر على ظهر سفينتهِ وجعل يسكب السكائب للنهر وللآلهة مستمدّاً منها العون الالهي ثم هتف الجنود هتاف الفرح وبوّقت الابواق وشقت المجاذيف وجه الماء وسارت السفن جارية مع التيار وكان فيها الرماة وحملة الترس والفرسان اي نخبة جنودهِ واما سائر الجيش فبقي ماشياً على ضفتي النهر في ثلاث فرق كبيرة وكان عازماً ان يبلغ مصبّ نهر السند فيترك السفن تسير في الاوقيانوس الهندي الى بحر فارس ويسير هو على الشاطئ الى ان يلتقي بها هناك فيكون قد دار حول مملكة الفرس كلها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً

وكان اذا مرّ باقوام مسالمين وهو نازل في النهر امنّهم واذا مرّ باقوام قابلوهُ بالعداء اجتاح بلادهم واقتص منهم وبعد قليل وصل الى مدينة حصينة قاومهُ اهلها فهجم عليها وفتحها عنوة وكان فيها حصن حصين رفيع الاسوار والابراج فدخلهُ اهلها واقفلوا ابوابهُ وللحال شرع بعض الجنود في نقب السور واتى البعض بسلمين وحاولوا نصبها فلم يستطيعوا لان السهام كانت تنهال عليهم انهيال المطر ورأى الاسكندر ذلك فاختطف احد السلمين ونصبهُ بنفسهِ وصعد الى اعلى السور ووقف هناك يتلقى السهام بترسهِ ويضرب كل من يدنو منهُ بسيفهِ وتبعهُ ثلاثة من خواص رجالهِ ووقفوا بجانبهِ يدفعون عنهُ الاعداء وصعد كثيرون غيرهم على السلمين فانكسرا بهم وبقي الاسكندر والرجال الثلاثة وحدهم على السور والسهام تهطل عليهم هطل

المطر والرماح تلذعهم من كل ناحية فجعل رجالهُ ينادونهُ من خارج السور ليرمي نفسهُ فيستلقوهُ بايديهم اما هو فوثب الى داخل السور الى قلب الحصن وقلب الاعداء — وثبة طيش او بسالة تفوق التصوُّر — وثبة من اسكرتهُ خمرة الانتصار فلم يعد يقدِّر العواقب

ووقف في الحصن وظهرهُ الى السور وجعل يضرب كلَّ من يتجاسر على الدنو منهُ من اهل المدينة واخيرًا اجتمعوا حولهُ في نصف دائرة ووقفوا يرشقونهُ بالسهام والحراب والحجارة ووثب رجالهُ الثلاثة الى داخل السور ووقفوا بجانبهِ يدافعون عنهُ فاصاب سهمٌ رأس واحد منهم نفذ من خوذتهِ وقتلهُ ووقع حجرٌ على رأس الاسكندر فكاد يصرعهُ ثم اصابهُ سهم في صدرهِ نفذ درعهُ واستقرَّ نصلهُ في رئتهِ فلم يبالِ بهِ اولاً بل بقي واقفًا يدافع عن نفسهِ ويورد من يدنو منهُ مورد الحتوف الى ان نزف كثير من دمهِ فخارت قواهُ وركع على ركبتيهِ ثم أُغمي عليهِ وبقي رفيقاهُ الى جانبهِ يدرآن عنهُ السهام وقد يئسا من النجاة

ولما رأت الجنود ان قائدها وثب الى داخل السور ولم تعد ترى لهُ اثرًا تولاها نوع من الجنون فحاول بعضها كسر الابواب وعدا البعض يفتشون عن السلالم ووقف البعض على اكتاف البعض الآخر الى ان صار منهم سلم بلغ اعلاهُ اعلى السور فصعدوا عليهِ واحدًا بعد الآخر وانقضوا على الاعداء انقضاض الصواعق ثم كسروا الابواب ودخلوا والسيوف في ايديهم يضربون بها يمنة ويسرة لا يعفون عن احد الى ان بلغوا الاسكندر فحملوهُ وخرجوا بهِ وهم يحسبون انهُ اسلم الروح ثم حاولوا نزع السهم من صدرهِ فنشروا قدحهُ (اي خشبهُ) اولاً حتى تمكنوا من نزع الدرع فرأوا النصل غائرًا في اللحم لا يستطاع نزعهُ لانهُ ناشب فيهِ وكان طولهُ اربع اصابع وعرضهُ ثلاثًا . ولما كانوا يحاولون نزعهُ افاق الاسكندر وحاول توسيع الجرح بيدهِ فلم يستطع فامر بردكاس ان يوسعهُ بسيفهِ ففعل ونزعهُ وزاد نزف الدم حينئذٍ فأُغمي على الاسكندر مرة أُخرى لكن رجالهُ اوقفوا الدم بما لديهم من الوسائل واقاموا حولهُ الليل كلهُ وهم لا يصدقون انهُ يبقى حيًّا الى الصباح . ولم ينم الجنود تلك الليلة ولا نزعوا اسلحتهم وعند الفجر نام نومًا هادئًا فانتعشت نفوسهم بعض الشيء

وبلغ الجنود البعيدة عنهُ انهُ مات فبكوا عليهِ وناحوا ثم تولاهم الجزع لانهم خافوا ان لا يجدوا من يعود بهم الى بلادهم بعدهُ . ثم بلغهم انهُ لم يزل حيًّا ولكنهُ ضعيف لا يستطيع الظهور امامهم فلم يصدقوا وحسبوا انها حيلة من القوَّاد ليسهل عليهم قيادهم لكن الاسكندر كان يتماثل رويدًا رويدًا وبلغهُ امر جنودهِ فخاف ان يتمرَّدوا على قوادهم اذا رسخ في نفوسهم انهُ مات فامر ان يضعوهُ على ظهر السفينة امام جنودهِ حتى اذا دنت السفينة من الشاطئ

رفع يده واشار اليهم مسلماً فهتفوا كلهم هتاف الفرح ورفعوا ايديهم الى السماء بالشكر والدعاء وبكى بعضهم فرحاً . ثم انزلوه الى الشاطىء واتوه بمحفة ليحملوه فيها فقال كلاَّ بل آتوني بجواد فاتوه فعلا صهوته والعيون محدقة اليه والقلوب طافحة سروراً واصوات الهتاف تصم الآذان الى ان بلغ خيمته فنزل ومشى خطوتين امام رجاله والسعيد منهم من كان يستطيع ان يلمس يده او هدب ثوبه فشملهم السرور بعد ان تولاهم الحزن والقنوط

ويستدل من هذه الحادثة وامثالها ان طبع الاسكندر لم يتغير عما عهدناه يوم علا صهوة الجواد بوسيفالوس وهو فتى في الثانية عشرة . فانه كان جسوراً مقتحماً لا يخشى المخاطر ولا يقدر العواقب ولاسيما اذا تهيج وكثر الدم في دماغه . لم تصرفه ابهة المشرق ورفاهية المعيشة عن طبعه الاول ولا كان رجاله ينظرون اليه نظر العباد الى المعبود بل كانوا يحسبونه مثلهم لحماً ودماً معرَّضاً للموت والفساد ولو كانوا يعتقدون ان الآلهة تقيه اكثر مما تقي سائر الناس لشدة تعبده وكثرة الهدايا التي يهديها الى هياكلها

وعادت السفن تمخر النهر بعد ان تماثل الاسكندر حتى بلغت نهر السند العظيم فانشأ هناك مدينة سماها الاسكندرية ومرفأً للسفن لكي تكون فاتحة بلاد البنجاب عند ملتقى الانهر الخمسة . ورأى البراهمة على ضفتي نهر السند يميلون الى العداء فسالم من سالمه منهم وحارب من حاربه الى ان بلغ صغدوي فبنى مدينة اخرى سماها باسمه وهناك امر ثلث رجاله ان يعودوا الى بلادهم بطريق قندهار وظل هو سائراً مع بقية الجيش الى ان بلغ رأس الدلتا حيث يتفرع نهر السند قبلما يصب في البحر على مقربة من المكان الذي بنيت فيه مدينة حيدراباد فانشأ مرفأً ودار صنعة لبناء السفن وحصنها التحصين الكافي ثم جعل يطوف في بلاد الساحل يبحث في طبائعها ليكون على ثقة من ان سفنه تسير امامها آمنة ورأى المدّ والجزر هناك وهي اول مرة رآها فيها لان بحر الروم لا يمدّ ولا يجزر الاَّ قليلاً جداً . ورأى الفرع الشرقي من فروع نهر السند اصلح الفروع فانشأ مرفأً عند مصبه . وانشاؤه للمرافىء يدلُّ على انه كان يهتم بمصلحة التجار وما ينتج عن توسيع التجارة وتأمينها من توفُّر الخيرات . ومن ثمَّ عرف الاوربيون بلاد الهند وصاروا يمضون اليها ويأتون منها بالبضائع ولا بدَّ من انها كانت معروفة قبل ذلك عند العرب والمصريين كما كانت معروفة عند اهل فارس . وفي شهر سبتمبر من شهور سنة ٣٢٥ قبل المسيح ودَّع بلاد الهند وسار بنحو ثلاثين الفاً من رجاله في مفاوز بلوخستان وامر السفن ان توافيه ببقية الجيش الى بحر فارس . وسيجيء تفصيل ذلك في الجزء التالي